بيانات

دفاعا عن نصر حامد أبي زيد ـ دفاعا عن الحريّة

يصدر هذا البيان متأخّراً عن مجموعة من المثقّفين العرب. غير أنّ هذا التأخّر يعود إلى رغبة لم تتحقّق. فقد كنّا نعتقد أنّ الغبن الفادح الواقع على نصر حامد أبي زيد سيُرفع، فتُحترمُ أصولُ الحقّ والحرّيّة وكرامة الفكر والحقيقة.. ولكن ما حدث ذهب في اتّجاه نقيض إذْ إنّ قوى الظّلم والظّلام والاستبداد تمسّكت بمواقفها، وخطت خطوة جديدة أكثر خطورةً تربط بين الاجتهاد الفكري والارتداد، مزاوِجةً بين قتل الفكر وقتل الإنسان المفكّر.

ولئنْ كنّا نطلب، في اللّحظة الأولى، تقويماً موضوعيّاً لأعمال المبدع حامد أبي زيد، بعيداً عن شكلانيّة دينيّة ـ نفعيّة، فإنّنا نطالب، في اللّحظة الثانية، بارتفاع الأصوات الوطنيّة كلّها لحماية حريّة الفكر وحياة المفكّر الوطني نصر حامد أبي زيد:

□ **إنّ القضيّة المثارة اليوم في مصر حول أعمال المفكّر الوطني نصر حامد أبي زيد تشكّل مرآةً للظّلام الّذي يلفّ الأمّة، وآيةً على البؤس التّاريخي الّذي تغرق فيه الشّعوب العربيّة. فهذه القضيّةُ بسياقها ودلالاتها لا تعني إلّا نفيَ العقل، ومصادرة حريّة الرّأي، ودعوة مستطيرة إلى إعدام الفكر والإنسان المفكّر.**

بدأت القضيّة حين أيّدت لجنة جامعيّة، هي مجلس قسم اللّغة العربيّة في كليّة الآداب ـ جامعة القاهرة، ترقيةَ المفكّر نصر حامد أبي زيد إلى مرتبة «الأستاذيّة»، تقديراً له على إنجازاته الفكريّة، واجتهاداته في

«حديقة الحواس» والأمن العام اللّبناني

دليلٌ آخر تقدّمه السّلطةُ اللّبنانيّةُ على اعتزامها قمعَ الحريّات، ولاسيّما حريّة التّعبير في لبنان.

فبعد قضيّة جريدة «السّفير» وفرض رقابة رسميّة على مجال المسرح والسّينما والإعلام، يبدأ التّخطيط لـ «اغتيال» الكتب بالمنع والمصادرة والتّضييق على الأقلام وكمّ الأفواه...

وها هي مديريّة الأمن العام تقرّر مصادرةَ كتاب الأديب عبده وازن «حديقة الحواس» بحجّة أنّه «يتضمن وصفاً للعمليّة الجنسيّة بشكل فاضح وإباحي».

والمشكلة هي في أن تُنصبّ مديريةُ الأمن العام نفسها قيّمة «أبويّة» على الإبداع ومقيّمةً له. وهي في عملها هذا تماهي بين الأدب والأخلاق، بل بين الحساسيّة الجسديّة الفنّيّة و«الدّعارة» التّحريضيّة.

إنّنا نؤكّد أنْ ليس ثمّةَ ناقدٌ أو باحثٌ أو دارسٌ رصينٌ يشكّك في أن «حديقة الحواس» يرقى في فنّيّته وجماليّته إلى مستوى الأعمال المبدعة في أدبنا اللّبناني الحديث، وإن كان ثمّة اختلافٌ في بعض التّفاصيل الّتي تندرج في إطار عمليّة النّقد الأدبي لا «الأخلاق».

وعلى هذا، يدخل قرارُ السّلطة بمصادرة الكتاب في تقاليد القمع الّتي يرفضها لبنان منذ كان، وهي تقاليدُ من خاصيّةِ أنظمةٍ عربيّةٍ كثيرةٍ يتميّز عنها لبنانُ بتوقه إلى الحريّة والدّفاع الدّائب عنها، حتّى وُصِفَ بأنّه ـ وسطَ السّلطاتِ العربيّة القامعة ـ «بطلُ الحرّيّات». فهل يريدون «تعريب» لبنان في هذا الميدان؟ وماذا يبقى للبنان، ممّا يعتزّ به المثقّفون اللّبنانيّون والعرب جميعاً، إذا فقد وجهَه الحضاريَّ هذا؟

لقد قرع اتّحادُ الكتّاب اللّبنانيّين ناقوسَ الخطر غيرَ مرّةٍ قبلَ الآن، وحذّر حملةَ الأقلام والفنّانين وسائر المبدعين من رياحٍ سوداءَ بدأت تهبُّ لتضيّق علينا الأنفاسَ تحت ذرائعَ مختلفةٍ، ودعا إلى تضامن جميع المثقّفين اللّبنانيّين لمقاومة هذه الرّياح الخطرة وتبديدها من أجل الإبقاء على حرّيّة التنفّس بحماية حرّيّة التّعبير.

وبالرّغم من زهدنا بتوسيط بعض عناصر السّلطة، فإنّنا ندعو أصدقاءنا ـ وزراءَ الثّقافة والدّاخليّة والإعلام والعمل ـ والنّوابَ المثقّفين ـ ولاسيّما المنتسبون منهم إلى اتّحاد الكتّاب اللّبنانيّين ـ للعمل على إلغاء هذا القرار الظّالم. ولعلّهم لا ينسَوْنَ أنّهم كانوا قبل أن يصبحوا وزراء ونوّاباً في صفوف المثقّفين المتشبّثين بالحرّيّات!.

اتّحاد الكتاب اللّبنانيّين

الدّراسات الدّينيّة والتّراثيّة. غير أنّ «اللّجنة العلميّة» الّتي أحيلت عليها مؤلّفات «نصر» كي تدرسها وتُقرّر استحقاق صاحبها للترقية، سارعتْ إلى الرّفض والاستنكار، معلنةً في تقرير رثٍّ في مبناه ومعناه أنّ المفكّرَ المذكور لا حقَّ له في الترقية، لجهله بتعاليم الدّين، والتّطاولِ على نصوصه. وقد ضمّنت «اللّجنة» هذا التّقرير تهمةَ الإرهاب الفكري التقليديّة: الإلحاد. وأمام تهمة الإلحاد، تنطمس الحقائقُ وكلُّ المرجعيات المعرفيّة، ويشمخ الإرهابُ المسلّح بالمقدّس، حاكماً وحيداً لا نظير له ولا قرين. وفي الفكر الدّيني المسيطر الآن في العالم العربي، اتّسع مفهومُ الإلحاد، وترامت حدوده. فأصبح القولُ بحقّ الإنسان في الاجتهاد والتّفكير إلحاداً؛ وغدت الدّعوةُ إلى استنهاض العقول من أجل مقاومة الهزيمة إلحاداً؛ واتُّهمَت المطالبةُ بتأويلٍ ديني مستنير - يتجاوز الإيديولوجيا الدّينيّة المسيطرةَ الّتي هي أحدُ عناصر الإيديولوجيا السّلطويّة - هي الأخرى بالإلحاد. ونتساءل: إذا كان العقل والحرّيّة والفكر المستنير ضروباً من الإلحاد، فهل يبقى للأمّة في معركتها الضّارية من أجل البقاء والنّهوض سوى الظّلاميّة والجهل وخميرة الهزيمة!؟.

إنّنا نرى في قضيّة المفكّر نصر حامد أبي زيد وجهاً من وجوه الصّراع بين الوعي التّاريخي والوعي المفوّت. وفي حين أنّ الوعي التّاريخي يحاول أن يعي الواقع وأن يتلمّس وسط حلكة هذه الأيّام أفقاً للتقدّم والبناء، فإنّ الوعي المفوّت يقايض فتاتَ السّوق والنّفط والسّلطة بمقولات وفتاوى تعصم أصحاب السّوق والنّفط والسّلطة، وتؤبّد بالتّالي التخلّفَ والتبعيّةَ والانحطاط. هذا الوعي المفوّتُ الّذي يغذّي أئمّةَ هذا الزّمان، ويغذّونه بدورهم، هو الّذي منع دخولَ المطابع إلى عاصمة الدّولة العثمانيّة عقوداً من الزّمان، وهو الّذي حارب التّنظيمات وكلَّ المحاولات الّتي بذلتها نُخَبٌ مستنيرة في العالم الإسلامي لكي يتخطّوا التّخلّفَ والظّلامَ القَرْوَسْطيّ، ويعبُروا إلى التّاريخ وإلى الفعاليّة التّاريخيّة. ألمْ يحارب أئمّةُ هذا الوعي المدارسَ، والتّرجمةَ، وبناء الجامعات، والطّباعة، والعلومَ، وكلَّ تيّارات الفكر الإنساني؟! ألم يحاربْ هؤلاء الأئمّةُ كلَّ تغيير، وكلَّ تطور، وكلَّ جديد!؟ لقد قاوموا النّهضةَ، والثّورةَ، وكلَّ بادرة يمكن أن تقود إلى تحديث المجتمع وتجاوز ظلامهم ومصالحهم.

وفي زخم العصر النّهضوي العربي الّذي أطلقه وبلوره - بالإضافة إلى التحوّلات الاجتماعيّة والسّياسيّة العاصفة - نفرٌ من المفكّرين الأحرار أمثال الطهطاوي ومحمّد عبده وطه حسين وعلي عبد الرّازق وفرح أنطون والعقّاد وسواهم، تزعزع موقعُ هؤلاء الأئمّة، وتراجعت ظلمتهم، وكدنا نأمل في ألّا يكون مستقبلنا نكوصاً إلى الوراء، وألّا يوجَدَ غدنا في أمسنا. ولكنّ هزيمة حزيران، وما جرّته من تداعٍ في البنى المجتمعيّة العربيّة، وتقهقرٍ، وردّةٍ، خلقت المناخَ الملائمَ كي يعود أئمّةُ الجهل - مسلّحين هذه المرّة بأموال النّفط، ورشاوى السّوق، وسلطة أنظمةٍ مهزومةٍ وغير شرعيّة - لكي يواصلوا معركتهم المقدّسة ضدَّ الحرّيّة، وضدَّ الفكر، وضدَّ العلم، وضدَّ التقدّم. وهكذا غيّب الشّيخُ الشّعراوي اجتهادات محمّد عبده وطه حسين، وبرز مصطفى محمود بنتاجه التّلفيقي الغثّ ليحلّ محلَّ الأفغاني والمغربي ولطفي السيّد وهيكل.

في هذا الزّمن الكئيب، انتشر إرهابُ التّكفير متضافراً مع إرهاب السّلطة، وحوصرت العقلانيّةُ وحريّةُ التّفكير في زنزانة الإلحاد، واستخدم الأئمّةُ الله والدّينَ رأسمالاً في مضاربات الثّروة والسّلطة. وجاء الدّكتور عبد الصّبور شاهين، رئيس اللّجنة «العلميّة» المكلّفة بالبتّ في الترقيات، ليعلن كفرَ نصر حامد أبي زيد، ويطعن في كفاءته العلميّة، متّكئاً على مقولاتٍ ركيكة وتلفيقيّة تغتال العقلَ والإنسانَ، وتتاجر بالدّين بقدر ما تتاجر بالأوطان ومصائر البشر.

ولذا فإنّنا نعلن تضامننا مع نصر حامد أبي زيد، ونستنكر قرارَ كليّة الآداب بعدم ترقيته.

إنّ تضامننا مع هذا المفكّر هو في جوهره تضامنٌ مع العقل، مع الحرّيّة، مع العلم، مع جامعة القاهرة وما تمثّله، ومع الأمّة ومستقبلها أيضاً.

الموقّعون حسب الترتيب الألفبائي

سناء أبو شقرا	أمينة رشيد	هادي العلوي
سماح إدريس	نبيل سليمان	عبد الرزاق عيد
واسيني الأعرج	إلياس شاكر	يمنى العيد
زينب الأعوج	ماهر الشريف	سيد القمني
عمر أميرالاي	حلمي شعراوي	أسامة محمد
عبد العظيم أنيس	محمود شقير	كريم مروة
محمد جمال باروت	غالي شكري	محمد ملص
سيد البحراوي	حبيب صادق	عبد الرحمن منيف
مريد البرغوثي	مسعود ضاهر	ابراهيم نصر الله
جبرا إبراهيم جبرا	رضوى عاشور	فريدة النقّاش
عصام خفاجي	محمود أمين العالم	سعد الله ونُّوس
إلياس خوري	فاروق عبد القادر	بو علي ياسين
فيصل درّاج	جابر عصفور	حسن م. يوسف
محمد دكروب	صادق جلال العظم	